الأطر النّظريّة للفكر اللّساني عند عبد السّلام المسدّي

الأستاذ: عبد الرحيم البار
قسم الآداب و اللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر –بسكرة

الملخص:

عبد السّلام المسدّي عالم من رواد اللّسانيات العربيّة الحديثة؛ فقد استطاع استقطاب محاصيل علوم اللّغات الأوروبية ودراسة مناهجها وأفكارها والغوص في خصائصها حبّا في التطلّع العلمي الجاد؛ والهدف من هذا هو جلب المعارف العلميّة والمنهجيّة إلى حاضنة اللّغة العربيّة بما يفدها ويحفّزها. فهو مؤمن بضرورة الدّفع باللّسان العربي نحو مواكبة الانتقال اللّغوي العالمي الحديث في عصر تسوده خاصية التّطوّر والتقدّم. فالمسدّي له من الأبحاث في مجال اللّسانيات ما يدل علىما أسلفناه، وسنوضّح هذا في وقفة وصفيّة نحدّد من خلالها الشقّ النظري اللّساني عند الأستاذ عبد السّلام المسدّي.

Abstract:

Mr. Abdul Salam Al Masdi Flags of modern Arabic linguistics; he was able to attract crops Sciences European languages and study their curricula, ideas and dive into the characteristics of love in the scientific look hard; The goal of this undoubtedly bring scientific and methodological knowledge into Arabic incubator. He is a believer the need to pay towards the Arab tongue keep up with the global linguistic transition in the modern era of development and progress property. Valmsudai his research in the field of linguistics evidence of what Osilvnah, and we'll show in this pause we descriptive determine through which slit the lingual theoretical when Professor Abdul Salam Masdi

مثّل اللّسانيات في فكر المسدّي:اتسمت أعمال عبد السّلام المسدّي بثراء لغويّهام؛ فلم يكن باحثا مقتصرا على جانب واحد. أو دارسا متعلقا بمجال معين. فدراساته جابت كل مناحي اللّغة منهجا وعلما، فلم يحصر إنجازاته في جهة معرفيّة محدّدة وإنّما كان منصبا على القراءة والتحليل لأهم المناهج الإجرائيّة والمعارف النّظريّة مدركا قيمةوأهمية ذلك في معرفة الغير والوقوف على الحقائق واستخلاص الإسهامات؛فهذا حسب المسدّي الطريق الصحيح في بسط الموروث اللّساني العربي بسطا لا تقلقه البواعث الخارجيّة، ولا المستجدات الحضاريّة التي تفرضها الحياة العالميّة. فالمسدّي لا محالة أدرك خطر هذا المنعرج اللّغوي الكبير. وتساءل عن واقع اللّغة العربيّة في ظلّ التحدّيات المعرفيّة والعلمية الحاصلة، وراح يسعى إلى دراسة المكتسبات اللّغويةالغربيّة لصالح اللّغة العربيّة وفق منوال علمي يكسي التّراث لباس الحضارة بعيدا كلّ البعد عن الانسلاخ المعرفي والذوبان في الغير.فأبحاثه كما أسلفنا موهوبة بالإبداع المعرفي؛ فقد تناول قضايا اللّغة وفق مبدأ علميّ دقيق وتصوّرٍ منهجيّ عميق له من الخصائص كامل التحليل والشرح والوصف:

أ–أهميّة اللّسانيّات في إثراء المعرفة اللّغويّة: تتجلّى أهميّة اللّسانيّات عند المسدّي من خلال ما استلهمه من نظريّات ومناهج رآها تتناسب والواقع اللّغوي العربي الحديث، وهذا ما عبّر عنه في الكثير من مواقفه حول هذا العلم. نجد من أقواله مثلا: "ومن المعلوم أنّ اللّسانيّات قد أصبحت مركز الاستقطاب بلا منازع، فكلّ تلك العلوم أصبحت تلتجئ في مناهج بحثها وفي تقدير حصيلتها العلميّة إلى اللّسانيّات وإلى ما تنتجه من تقديرات علميّة وطرائق في الاستخلاص"[(1)]. باعتبار أنّها العلم الذي يدرس حقائق ومناهجالظواهر اللّسانيّة وبيان عناصرها ووظائفها وعلاقاتها الإفراديّة والتركيبيّة"[(2)]؛ فهذا التعريف الوصفي دليل أهمية ودور اللّسانيّات كعلم قائم بذاته في إثراء المعرفة اللّغوية. لاشكّ من أنّ المسدّي ينطلق في دراسته اللّسانيّة معتمدا على قواعد واضحة تعبّر على وازعه الفكريّ ومبدئه المنهجيّ الذي ينبع من إيمانه الكبير بمقدّرات اللّسانيّات كعلم عصري يمكن الاستفادة منه وتطويعه بما يناسب اللّغة العربيّة. ويتسنّى لنا التّعبير عن ذلك بما يلي:

–يستند إلى دراسة التّراث اللّساني العربي القديم باستنطاق المكنونات اللّغويّة الزّاخرة.

–مطالعة المنجز اللّساني الغربي والتغلغل العميق في خصائصه المنهجيّة والمعرفيّة.

–يعتمد في دراساته اللّسانيّة غالبا على المنهج الوصفي، وهذا النّوع من المناهج تلجأ إليه العديد من الأبحاث اللّسانيّة المعاصرة.

–لم يستثن المسدّي بعض دراساته من المنهج التاريخي؛ فهو يعتبره الوسيلة المهمّة والفعّالة في استحضار المواد المعرفيّة المستهدفة من الدّراسة.

–ويظهر على المسدّي اعتماده المنهج البنيوي في دراسات عديدة؛ فهو يرى أنّ اللّسانيّات البنيويّة ذات التحرّك الآنيّ قد مكنتنا من النّظر بعمق في تراثنا اللّغوي.

–يرى"أن البنيويّة رائدة الدراسات اللّسانيّةوهي في نظره الأقرب إلى الرؤية العلميّة والموضوعيّة في الدّراسات اللّغوية الحديثة"[3].

–تقوم الدّراسة اللّسانيّة عند عبد السّلام المسدّي على خطوات معينة وهي:

1–التّحديد والتأسيس للقواعد الأوليّة للانطلاق في البحث والإجراء.

2–دراسة الظاهرة اللّغوية عبر كشف خصائص البناء العضوي اللّغوي.

3–اعتماد قاعدة المدلولات في بناء الضّبط الاصطلاحي اللّساني.

–يلحظ على أعمال المسدّي تفريقها بين معاني اللّغة والكلام على نحو ما جاءت به اللّسانيّات المعاصرة. فاللّغة عنده هي مكسب إنسانيّ اجتماعيّ يقوم على مقدّرات صوتيّة وتركيبيّة تختلف من بيئة لغويّة إلى أخرى، أمّا الكلام فهو القدرة المجسّدة للمكتسبات اللّغويّة. وبعبارة أخرى هو الممارسة الفعليّة المحقّقة للتواصل اللّغوي.

–يقوم المسدّي في دراسته اللّسانيّة على اعتماد الأبعاد الثلاثيّة الآتيّة:

1–البعد الأوّل: قراءة التراث عبر استعراض وجهة نظر علماء اللّغة العربيّة للظاهرة اللّغوية، وقد قام بحصر هذه الآراء المستخلصة فيما يسمّى بقضية المواضعة.

2-البعد الثّاني: قراءة مادة الفكر اللّغوي عبر الملاحظة العلميّة، وراح هنا يدرس كلّ ما يتعلّق بنشأة اللّغة واستطلاع الفكر اللّغوي العربي في دراسة قضايا اللّغة المختلفة.

3-البعد الثّالث: التطلّع إلى ما جاءت به اللّسانيّات الغربيّة في جميع معطياتها العلميّة المعرفيّة والمنهجيّة وخاصة في شقّها النظري أي اللّسانيّات العامة.

-يدعو إلى دراسة نشأة اللّغة وتتبع مراحل تطوّرها، ورأى في ذلك أساس المعرفة اللّغوية الدقيقة والأقرب إلى تحقيق الرؤية العلميّة.

-أبحاثه لا تخرج عن دائرة أبحاث 'اللّسانيات النظريّة، ونستقرئ ذلك في عبارته التي وصف بها اللّسانيّات النّظريّة بأنّها 'الإطار الذي يستوعب كلّ قضايا اللّسان'.

-يستنطق النّصوص اللّغوية ويستشهد بالمقاطع النّصيّة في تقدّيم رأي صاحبها قبل انتقاء الشاهد. وقد يُجري أيضا مقارنة بين نصّ وآخر كأن يقارن مثلا بين موقف أبي علي الجبائي وفخر الدّين الرّازي في 'تعريف المواضعة'.

-لم تخل أبحاثالمسدّي اللّسانيّة من الإرهاصات الفلسفيّة ويبرز ذلك في مواضع استشهاديّة عدّة كتأثّره بمبدأ الآنيّة المستمدّ من جدول التّنظير الفلسفي فمن عباراته الدّالة على ذلك حديثه عن فكرة الاعتباط والتلازم فبرأيه إذا كانت اللّغة "لا تقدر أن تتنصّل عن الزّمن بوصفه فكرة مجرّدة ذات شحنة برجسونيّة، وبوصفه أيضا صورة فيزيائيّة ذات تقدير أنشتايني، بل بوصفه مع هذا وذاك معيارا لوجود المادة في تركبها وتفكّكها طبقا للمنظور الماركسي الكاسر لمنهاج الجدل الهيجلي"[4].

-ومن المعارف التي يتسم بها الفكر اللّساني عند المسدّي تجسيمه لهوية الحدث اللّساني على خاصية حدث الجهاز الفيزيائي؛ فقد جعل الكلام مركزًا في حيّز صغير من حوله حيّز أكبر منه يمثّل الجهاز التواصلي. وهذا المركز تصدر منه أشّعة تمثّل حسب رأي المسدّي الباثّ والمتقبّل والصوت والترامز والمواضعة والتركيب والتفكيك والناتج من هذا كلّه تتداخل عناصر تكوين عملية التواصل وتتحرّك على مسيرة خطّ الزمن والإنجاز في صورة تفاعليّة خاضعة لمبدأ المدّ والجزر وهنا نلحظ تيمّنه بقانون التفاعل الفيزيائي.

ب–اللّسانيات بين اللّغة والفكر عند المسدّي:من الواضح أنّ علم اللّسانيات بكافة مجالاته وفروعه أضحى من أهمّ المواضيع المتداولة في العصر الحديث؛ فقد شكّل هاجسا فكريّا صبغ جلّ المناحي الدّراسيّة اللّغويّة بطابع تصوّري منهجيّ مرده اختلاف القراءات والرؤى الفكريّة التي أضحت تفسّر هذا الطالع العلميّ الجديد والذي اجتاح الدرس اللّغوي العربيّ الحديث بقوّة. وعلى غرار الكثير من الباحثين الذين كانت لهم مواقف وتفسيرات لهذه المعضلة المعرفيّة كان للأستاذ عبد السّلام المسدّي آراء وأبحاث في هذا المجال المستجد في عالم اللّغة العربيّة. فقد كان مطّلعا على خبايا الفكر اللّساني الغربي من خلال التوغّل في مناهجه ومدارسه والوقوف عند مبادئه محاكيا في ذلك الملكة اللّغويّة العربيّة التّراثيّة للقياس والاستخلاص. وكان في قراءاته يجمع بين ما تقدّمه اللّسانيّات كعلم إنسانيّ لغوي حديث وبين ما تحمله من أفكار ومبادئ ورؤى فلسفيّة. ولعلّ الهدف من هذا كلّه حماية أصالة التّراث اللّغوي العربيّ من واردات الفكر الذي قد يمسّ من مبادئه والسّعي قدما إلى كيفية الاستفادة من اللّسانيات كعلم لغوي حديث رائج في ظلّ التنافس العلمي الكبير.

2–اللّغة والمعرفة العلميّة:يقول المسدّي في هذا الصّدد: "ربّما كان النّاس يعرفون منذ زمن بعيد أنّ كلّ شيء يفكّرون فيه فتفكيرهم فيه يمرّ من اللّغة، وربّما كانوا يعرفون أنّ ما يحسّون به وما يستشعرون هو أيضا يتجلّى لهم من خلال اللّغة"[5]. يربط المسدّي بين اللّغة والفكر ورآهما ظاهرة إنسانيّة ملازمة للوجود البشري منذ القدم، فالإنسان يعبّر عمّا يدور بذهنه بلسانه باعتبار هذا الأخير المحرّك الفعلي في كشف خبايا الأفكار وعرضها. ولم يبعد المسدّي فرضيّة ما إذا كان الإنسان يدرك قيمة اللّغة المعبّرة في تحقيق غاياته الذاتيّة وربط ذلك بعنصري الحسّ والشّعور لأنّهما مبدآن أساسيّان في حصول الإدراك وهذا الإدراك يترجمه الجهاز اللّغوي إلى عبارات تؤدّي غاية ما وحاصل هذا أنّ الإنسان "خلق مستعدّا بيولوجيّا للكلام، إلا إذا حال بينه وبين ذلك عاهة من العاهات الطبيعيّة"[6]. إلاّ أنّ المسدّي في هذا العنصر يلوّح إلى الرّابط بين اللّغة والمعرفة باعتبار التّنوع والانتقال والتطوّر. فبعد اليقين بوعي الإنسان واستشعاره لأفكاره وتعبيره عنها بملكته اللّغوية. بات السؤال المطروح. هل انتقل الإنسان بفكره البدائي والمعبّر عنه بلغة فطريّة إلى التفكير العلمي والمعبّر عنه بلغة راقيّة؟. وهذا ما أدرجه في قضية 'اللّغة والمعرفة العلميّة'. فقد ألحّ على أنّ اللّغة أداة ممحّصة للفكر ومعبّرة على خبايا الذّات ومساهمة في بثّ المعارف وإحداث التّواصل "فليس من معرفة إلاّ

وهي مستقاة عبر مصفاة اللّغة"[7]. ولكن هل مصفاة اللّغة هذه ارتقت إلى مرتبة المعرفة العلميّة؟. ويجسّد المسدّي علاقة اللّغة بالمعرفة العلميّة وفق المراتب التاليّة:

-تطوّر اللّغة من المعرفة الذّاتيّة إلى المعرفة العلميّة وهو ما سمّاه بانتقال اللّغة من طور الحقيقة الذاتيّة إلى طور الحقيقة العلميّة وهذا مردّه حسب المسدّي تطوّر العقل البشري عبر المراحل الزمنيّة باعتبار أنّ اللّغة ظاهرة إنسانيّة "لها كلّ مميزات الوجود الموضوعي الذي لا ينغلق منه شيء على سؤال العقل"[8]، فالعقل مصدر للتّفكير والتّدبّر و"الفكر محرّك للّغة من مكامنها التي تبدو فيها"[9]؛ أيّ في صورها البدائيّة.

-انتقال اللّغة من الجّانب الفكريّ المقتصر عن المعرفة المحدودة المتعلقة بالجانب الذّاتيّ بالضّرورة إلى المعرفة العلميّة، وهذا ما عبّر عنه المسدّي بقوله: "المعرفة العلميّة للكلام هي المفتاح الذّهبيّ لكل أصناف المعارف بلا استثناء"[10].

-اللّغة في ظلّ الفكر اللّسانيّ صبغت بالطّابع المعرفيّ العلميّ لعوامل أهمّها:

أ-اعتبار "اللّغة موضوع للمعرفة في خضمّ التطوّر العلمي السريع.

ب-الإنسان قد أصبح بنفسه موضوعا للمعرفة"[11] أي الأبحاث الإنسانيّة.

-إسهام اللّسانيّات كعلم إنسانيّ لغويّ حديث في بناء المعرفة العلميّة، فكلّ "العلوم أصبحت تلتجئ في مناهج بحثها وفي تقدير حصيلتها العلميّة إلى اللّسانيّات وإلى ما تتجه -إليه- من تقديرات علميّة وطرائق في الاستخلاص"[12].

3-**اللّسانيّات وفلسفة المعرفة:** بعد حديثنا عن اللّغة والمعرفة العلميّة نذكر عنصرا مهمّا من حلقات اللّغة والفكر. فلمّا اكتمل الحوار القائم بين اللّغة والمعرفة واتضحت صورة العلاقة القائمة بينهما جاء البحث في حقيقة علم اللّسانيّات الحديث والرّابط الفلسفيّ الجامع بين عوارض اللّغة وهذا ما سنوضّحه في هذا العنصر:

يقول الأستاذ المسدّي في هذا الصّدد: "إنّ الظاهرة اللّغويّة ماانفكّت تبسط أمام الفكر البشري منذ القديم صنفين من القضايا أحدهما نوعي والآخر مبدئيّ عام. فأمّا الصنف الأوّل فيتمثّل

في عناصر اللّغة باعتبارها نظاما مخصوصا له مكوّناته الصوتيّة والصرفيّة والنّحويّة والمعجميّة، ولكلّ هذه الأوجه فرع مختصّ من فروع الدّراسة اللّغويّة وهذا الجانب من القضايا نوعي باعتبار أنّه متعلّق بكلّ لغة على حدّة. وأمّا الصنف الثاني من القضايا فيتصل بالمشاكل المبدئيّة التي يواجهها النّاظر في اللّغة من حيث هي ظاهرة بشريّة مطلقة. ويتدرّج البحث في هذه المسائل من تحديد الكلام وضبط خصائصه إلى تحسّس نواميسه المحرّكة له حتى يقارب قضايا أكثر تجريدا وأبعد نسبيّة كقضيّة أصل اللّغة، وعلاقة الكلام بالفكر، وتفاعل اللّغة بالحضارة الإنسانيّة"[13].

أراد المسدّي أن يبيّن دوائر الأبحاث الفكريّة الفلسفيّة فيما يتعلّق بقضايا اللّغة بصفة عامة وقضايا اللّسانيات على وجه الخصوص وهو ما قسّمه إلى قسمين:

–قسم طالت دراسته الجانب التّركيبي كالبحث في الظواهر الصرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة وهذا ما يشير إليه في عبارة 'فأمّا الصنف الأوّل، فيتمثّل في عناصر اللّغة باعتبارها نظاما مخصوصا له مكوّناته الصوتيّة والصرفيّة والنّحويّة والمعجميّة'. والواضح من هذا الكلام أنّ الأبحاث اللّغوية كانت منصبة حول دراسة جوانب اللّغة من النّاحية البنيويّة والتركيبيّة والصوتية. فارتكزت الدّراسات على تشخيص نظام اللّغة والبحث في خصائصه خاصة في عموم الأعمال التي ظهرت في مطلع القرن التاسع عشر.

–وقسم يهتم بالجانب الإنسانيّ للّغة أي البحث فيها من منطلق أنّها ظاهرة إنسانيّة لها أبعادها الخاصة وهو هذا النّوع من القضاياتصل بالمشاكل المبدئيّة التي يواجهها النّاظر في اللّغة من حيث هي ظاهرة بشريّة مطلقة. ويتدرّج البحث في هذه المسائل من تحديد الكلام وضبط خصائصه إلى تحسّس نواميسه المحرّكة له حتى يقارب قضايا أكثر تجريدا وأبعد نسبيّة كقضيّة أصل اللّغة وعلاقة الكلام بالفكر، وتفاعل اللّغة بالحضارة الإنسانيّة'.

فلا شكّ من أنّ اللّسانيات استمدت وجودها من عدّة نزعات فكريّة وفلسفيّة جسّدت لها النّمط الوجودي ضمن الحيّز الإنساني. ونقف هنا على مجموعة من أهمّ النّظريات الفلسفيّة التي استقت منها اللّسانيات روح التمكّن والرواج المعرفي:

1-فكرة التغيّراللّغوي: "ترى كل الاتجاهات اللّغويّةأنّ قواعد اللّغات السابقة والحديثةمنتقلة بالتغيّر وهذا يثبّت فكرةأنّ اللّغات يجب أن تدرس من خلال"[14]البحث في جذورها.

2-فكرة نظام اللّغة: "تنظر هذه النّظريّة إلى مكوّنات اللّغة على أنّها مسارعة إلى البساطة وتعتبر أنّ ذلك ميزة كلّ اللّغات كونها تنتقل من التركيب المركب إلى التركيب المبسط"[15].

3-فكرةالتداول اللّغوي: الاستعمال اللّغوي الشامل يؤدّي إلى السيطرة اللّغوية؛فالتداول اللّغوي داخل البيئة اللّغوية التي تتمركز فيها لغات عدّة، تكون الغلبة للغة الأكثر استعمالا.

4-فكرة الأصل اللّغوي: أسّسها العالم اللّغوي 'شليشر'(Schleicher)؛ وهدفه تحديد أواصل القرابة بين اللّغات الهندوأوروبيّة وضبط صور التّطوّر اللّغوي في المراحل الزّمنيّة المختلفة، فمونان(Mounin)"يرى بأنّ هذه النّظريّة تهدف إلى جعل التّاريخاللّغوي يتناسق والنّظرة البيولوجيّة التطوريّة التي نادى بها داروين في فلسفته"[16] فاستطاع أن يحدث ضجة كبيرة بفكرته التصوّريّة التي راجت في كلّ العلوم.

5-المكوّنات الصوتيّة: يجزم أتباع هذه النّظريّةعلى وجود عوامل داخلية قديمة تسهم في إحداث التغير الصوتي باعتبار أنّ العجز عن التعبير وإحداث تواصل كامل ومتبادل كان يقتضي دخول عناصر تتحكم في العمليّة الصوتيّة بصورةلا إرادية كدخول عامل الحذف.

6-المكونات الفيزيولوجيّة: تقدّم هذه النّظريّة نوعا جديدا من التفسيرات،"فهي ترى أنّ التغير اللّغوي يعود إلى تغير في تكوين سمات الإنسان، وتعاقب الأجيال البشرية على مر العصور حيث يرى 'هارمانأشوف' Hermann)(Osthoff أنّ هناك تغيرات فيزيولوجيّة عديدة طرأت على كل أعضاء الجهاز النّطقي عند الإنسان منذ القدم وهذه التغيّرات كانت السبب الوحيد والمباشر في التغير اللّغوي فأصحاب هذه الرؤية نفوا فكرة الثبات للشكل الفيزيولوجي لجهاز النّطق وبالتالي هذا ينفي ثبوتية اللّغات وأنها بهذه الكيفية تكون متغيرة"[17].

7-الجانب الاجتماعي: المجتمع هو الأساس في تكوين اللّغة، لأنّ البيئة الاجتماعية تتدخّلفيتكوين الإنسانمن الناحية الفكرية ولاشك أنّ الفكر صلب اللّغة.

4-المعرفة اللّغويّة والتّراث الإنساني:يرى الأستاذ المسدّي: أنّ"قراءة الميراث الإنسانيّ منهج لا يعوزه التأسيس المعرفيّ في حدّ ذاته، فكلّ قراءة كما هو معلوم في المنظور التواصلي العام تفكيك لرسالة قائمة بنفسها وما التّراث إلاّ موجود لغويّ قائم الذات باعتباره نصّا. وإعادة قراءته تجديد لتفكيك رسالته عبر الزمن، وهي بذلك إثبات لديمومة وجوده. فكما أنّ الرّسالة اللّغويّة

عند بثّها قد تصادف أكثر من متقبّل واحد فيفكّكها كلّ حسب أنماط جداوله اللّغويّة، فتتعدّد القراءة آنيّا للرسالة الواحدة حسب تعدّد المتقبّلين فكذلك تتعدّد القراءة زمانيّا بتعاقب المتقبّلين والمفكّكين لبنائها على محور الزمن والتاريخ وهكذا تتأسّس مشروعيّة القراءة والمعاودة طالما جاز تعدّد المتقبّلين للرسالة الواحدة وجاز تنوّعإدراكهم لأنساقها"[18].

–يرى المسدّي أنّ علاقة المعرفة اللّغويّة بالتراث الإنساني هي علاقة تداخل وتكامل؛ فلا وجود للغة خارج الحيّز الإنساني ولا تقدّم للإنسان بدون لغة.

–من الضروري بالنسبة للمسدّي مراجعة التراث الإنساني والبحث دائما في معطيات الحضارة على اختلاف مراحلها الزمنيّة، فهذا في نظره يهيّئ اللّغة ويساعد على الوقوف عند متطلبات اللّسان في مراحله الآنيّة وفق ما تقتضيه الضرورة.

–معرفة التّراث الإنساني يمكّننا من استنباط "الأنظمة اللّغوية وتصويرها في مجموعة متداخلة من الدوائر –بحيث– تمثّل البناء العام للنّظرية اللّغوية؛ إذ تحدّد مختلف الفروض وتصوّر موقعها بعضها من بعض"[19].

–تولي أبحاث علوم الإنسان الحديثة والمعاصرة مكانة خاصة في دراسة اللّغة كونها قسم رئيسي من أقسام الظواهر الإنسانيّة وربطها بعلوم إنسانيّة أخرى خاصة علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التاريخ.

5–اللّسانيّات والتّراث العربي:يقول الأستاذ المسدّي فيما يتعلّق بعلاقة اللّسانيات والتّراث: "إنّ الفكر العربي قد شقّ طريقه من المعاصرة إلى الحداثة دون قفز مولّد للقطيعة، وقد تسنّى له ذلك بفضل انصهار المادة والموضوع في تفكير روّاده العقلانيين؛ فكان الصراع المنهجيّ خصيبا إلى حدّ الطفرة أحيانا. لكن المنظور العربيّ مازال يتصارع والحداثة من حيث هي موقف مبدئيّ..العرب يواجهون تراثهم لا على أنّه مِلكٌ حضوريّ لديهم لكن على أنّه مِلكٌ افتراضيّ يظلّ بالقوّةما لم يستردّوه؛ واسترداده هو استعادة له واستعادته حمله على المنظور المنهجيّ المتجدّد وحمل الرؤى النقديّة المعاصرة عليه"[20].

بعد رواج علم اللّسانيات كعلم لغويّ عصريّ حديث يدرس اللّغة دراسة علمية باحثا في "حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطوّرها ووظائفها وعلاقاتها وقوانينها"[21]، فمن الطبيعي أن يكون له موطئ قدم في اللّغة العربيّة لأسباب كثيرة أهمّها الرّغبة في تطوير اللّغة العربيّة بما يتناسب والنّمو الحضاري لكافة العلوم الإنسانيّة وغيرها من جهة، وسعيا من أهلها لإيجاد مكانة

مرموقة تحفظ للغة الضاد توازنها وصيرورتها بين كافة اللّغات في ظلّ عالم متقلبّ ومتصارع حضاريّا وفكريّا ومتسابق في اقتناء المعلومة والتقنيّة.

ولكنّ السّؤال الذي يطرح نفسه بعمق وهذا ما يراه الأستاذ عبد السّلام المسدّي ضروريا هو كيف قابل اللّغويون العرب علم اللّسانيات؟. وكيف استفادوا منه؟.

استطاعت اللّسانيات أن تستحوذ على كافة الدّراسات اللّغوية الحديثة والمعاصرة كونها المستجد الجديد في حقل المعارف العلميّة اللّغويّة. فتعدّدت فيها القراءات والدّراسات والمناهج وظهرت فيها التخصّصات.

اطلع اللّغويون العرب على ما أفرزته الحضارة اللّسانيّة الغربيّة بمختلف معطياتها المعرفيّة والمنهجيّة وكان لكلّ واحد منهم رأيه الخاص في تبنّي الفكر اللّساني الغربي وإسقاطه على مكتسبات التّراث اللّغوي العربي. فكان لزاما أن تختلف الإسقاطات والاحتجاجات والتفسيرات في كيفية تلقّي اللّسانيات الغربيّة:

أ–القراءة العلميّة: اطلع العرب على مناهج الغرب اللّسانيّة فبحثوا في الوصفيّة والبنيويّة والتوليديّة وغيرها؛ والغرض من هذه الدّراسات هو التطلع المعرفي والبحث في مستجدات علوم الغرب اللّغوية.

ب–القراءة المنهجيّة:وفيها تطرّق المختصون إلى دراسة نظريّات اللّسانيات دراسة نقديّة ومحّصوا "مبادئها ومناهجها واتجاهاتها"[22]وفق ما يتماشى والموروث العربي.

فالمسدّي يرى بأن اللّسانيات الغربية وما تحمله من رؤى وفكر فهي وافد غريب إلى الحضارة العربيّة ولكن هذا لا يمنع من وجود انطباعات إيجابيّة يمكن أن تستلهمها الحضارة اللّغوية العربيّة منها، وهذا ما يفسّره قوله: "إدخال مفاهيم اللّسانيات مع مفاهيم التّراث في جدل خصيب يُخرج لنا ثمارا مفهوميّة جديدة وحصيلة معرفيّة متفردّة ليست صورة مشوهة للتّراث ولا هي صورة منسلخة من اللّسانيات، وإنّما هي عطاء نوعيّ"[23].

وعلى الرّغم من التباين بين الحضارة اللّغويّة العربيّة والفكر اللّساني الغربي إلاّ أنّ جلّ الدّراسات العلميّة تثبت مواطن الاشتراك بين كلّ اللّغات لاعتبارات منها:

أ–كلّ اللّغات لها قيم فكريّة خاصة لا يمنع هذا من حصول التّداخل والتّنافر معا.

ب–التفاعل الحضاري عامل طبيعيّ قديم يحصل نتيجة عوامل عدّة وهذه من سمات الحضارات الإنسانيّة.

6-مجالات البحث اللّساني عند المسدّي: من الواضح أن تتحدّد رؤية المسدّي وقراءته لعلم اللّسانيات في دائرةأبحاثلسانيّة خاصة ونأتي هنا على ذكرها:

تمثّل البحث اللّساني عند الأستاذ المسدّي في شقّين أساسيين اثنين وهما:

1-الشّق النّظري: وقد خصّه المسدّي بأبحاث علميّة تمثّلت في الاطلاع على منجزات الفكر اللّساني الغربي ومعطياته المعرفيّة والمنهجيّة. ويلحظ عليه أيضا في الجانب مقارنته المعرفيّة بين مكتسبات التّراث العربي وبواعث اللّسانيات الغربيّة. وهذا ما رأيناه في المحاور التي تناولناها سابقا كما كان له اهتمام بالغ بمقدّرات المصطلح وعلومه ورأى فيه العجلة الأساسيّة لدراسة علوم اللّغة وتتبع مناهجها والاطّلاع على إجراءاتها الخاصة. ونجد أعماله التاليّة: 'اللّسانيات وأسسها المعرفيّة' 'مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات التفكير اللّساني في الحضارة العربيّة' المجال الذي جسّد مواطن البحث النظري وفق ما أسلفناه. وهاهو المسدّي يقول: "إنّ علم اللّسان الحديث ما انفكّ يحقّق المكتسبات تلو المكتسبات في مختلف ميادينه: النّوعيّة منها والشّموليّة، ولا يزال رواده يقدّمون إلى أخلائهم المختصّين في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة غزير الثمار في حقول البحث الميداني والاختبار التطبيقي"[(24)]. وباتت اللّسانيات العلم الذي ينشد 'منزلة العلم الكلّي في تقرير حال الظاهرة اللّغويّة مبتدئة بالحدث العيني وقاصدة إلى الحقائق الكونيّة'.

2-الشّق التّطبيقيّ:نرى أنّ للمسدّي محاولات لسانيّة جسّد من خلالها توجهه المنهجي والمعرفي في حقل اللّسانيّات وخاصة تعلّقه ببعض المناهج الغربيّة كالبنيويّة فقد ألّف كتابا بعنوان 'قضية البنيويّة دراسة ونماذج' محاولا من خلال هذا العمل شرح مقاصد هذا المنهج ومزاياه في اللّسانيات العربيّة. يقول المسدّي في مقدّمة كتابه معلّقا عن هذا العمل: "وقد عالجنا الموضوع من منطلق جملة من الخبرات الفكرية المتداخلة التي كانت قضيّة البنيويّة فيها بمثابة عماد الدوران في مفترق من المسالك، وقد كان حافزنا الخفي هو التساؤل في كلّ حين عن وجه الهويّة المعرفيّة في الفكر البنيويّ من خلال العلاقات الممكنة بينه وبين سائر حقول المعرفة إلى جانب التساؤل عما طرأ على هذا الفكر من انسلاخات مختلفة سواء بمفعول التّحول الذاتي أو بمفعول الانتقال من بيئة ثقافيّة أجنبيّة إلى بيئة الثّقافة العربيّة"[(25)].

ونأتي هنا إلى الوقوف عن كيفيّة تشخيص عبد السّلام المسدّي للمنهج البنيويّ وفق ما تمليه عليه رؤاه الفكريّة ووفق ما تتبنّاه خطواته المنهجيّة:

أ–تعريفه للبنيويّة: في نظره منهج لغويّ حديث لديه رؤية خاصة في دراسة مقوّمات اللّغة ومكوّناتها، ويسعى للولوج "إلى بنية النص الدّلاليّة من خلال بنيته التركيبيّة"[26] ويمكن الاصطلاح على أنّ البنيويّة "طريقة علميّة يقام بها مبنى معيّن"[27]. والواضح أنّ هذا المنهج ظهر على يد العالم اللّغوي 'فرديناندوسوسير'، وقد تجلّى هذا في دراسته لقضايا اللّغة والكلام والدّال والمدلول والتزامن والتعاقب.

ب–إجراءاتها: يرى المسدّي بأنّ الدّراسة البنيويّة تهتم ببنية النص، ولا تنظر إلى محيطه الخارجي "فلا تدرس المؤلف ولا تهتم بالسياق النفسي والاجتماعي، بل أنّها تبحث في الوظيفة الجماليّة للنصّ فقط"[28]؛ فهي تفسّر الحدث على مستوى البنية ويمكن هنا إيجاز عناصر الدّراسة البنيويّة فيما يلي:

1–النسق: ويقصد به حصر الدّراسة في العناصر التي تتحدّد بها بنية النّص؛ لأنّ هذه العناصر هي أساس العلاقات البنيوية داخل منظومة النّص.

2–التّزامن: "يمثّل ارتباط النظام الزمني المتعلّق باستمرار البنية وثبات نسقها"[29].

3–التعاقب: فهذا العنصر مرتبط بالتزامن ولا يمكن الفصل بينهما وله علاقة مباشرة بنظام البنية في النص.

ج–مجال الدراسة البنيوية: تتوزّع الدّراسة البنيويّة عند المسدّي في عدّة نقاط منها:

1–المجال الصوتي 'الفونولوجي': دراسة الحروف من حيث رموزها وتركيباتها الموسيقية: كالإيقاع والنبر والتنغيم وغيرها.

2–المجال الصرفي 'المورفولوجي': يبحث في الوحدات الصرفية من خلال الوقوف على وظيفتها داخل النص الأدبي.

3–المجال النّحوي: يبحث في تراكيب الجمل وطرق تكوينها ومعرف خصائصهنظامها.

4–المستوى المعجميّ: دراسة الكلمات من الناحية التجريدية للوقوف على الجانب الحيوي والحسي منها.

5–المستوى الدّلالي: البحث في معاني الكلمات ودلالتها وعلاقتها بغيرها من الألفاظ.

6–مجال القول: يختص "بدراسة الجمل الكبرى ضمن حيز الكلام"[30].

7–مجال الرمز: وهو نتاج البحث في علاقات النّص بمعنى استخلاص الصيغة المعنويّة المستوحاة من الدّراسات الأخرى.

نستخلص من هذه الدّراسة الوصفية التحليليّة للفكر اللّساني عند المسدّي اهتمامه البالغ بهذا المجال من علوم اللّغة أي اللّسانيات؛ فقد اتخذ منهجا استقرائيا استطلاعيا وقف من خلاله على حاويات اللّسانيات الغربيّة؛ ففصّل في شرح مبادئها وأفكارها وتوقف ملاحظا لإجراءاتها وقواعدها؛ لعلّه يلقى في هذا المنعطف الإنساني الحديث ما يفيد اللّغة العربية في جميع الأبواب والمنكب على قراءة كتب المسدّي وأعماله يلحظ هذا التوجّه الجاد. فهو يدرك أنّ للعربيّة نظاما خاصا له من الكفاءة ما يضمن لها سمة التقدّم في عصر تسوده المنافسة العلميّة التي هيمنت على جلّ المعارف العصرية؛ التقنية منها والإنسانيّة. فكان لزاما على العرب أن يستفيدوا من هذه النقلة النوعية؛ والتي باتت تفرض علينا إمّا المواكبة أو الزوال وهذا ما لا يتناسب مع ما ترمي إليه لغتنا العربيّة.

<u>–الإحالات والهوامش:</u>

1–عبد السّلام المسدّي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات، دار الكتاب الجديد المتحدّة، ط1، 2010م، ص10.

2–عبد السّلام المسدّي، قضية البنيويّة دراسة ونماذج، وزارة الثقافة، تونس، ط1، 1991م، ص22.

3–عبد القادر عبد جليل، اللّسانيّات الحديثة، دار الصفاء، الأردن، ط1، 2002م، ص107.

4–ينظر، عبد السلام المسدّي، التفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، دار الكتاب الجديد، ط3، ص201.

5–عبد السّلام المسدّي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات، ص9.

6–عبد الجليل مرتاض، اللّغة والتّواصل، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، د–ت، ص31.

7–عبد السّلام المسدّي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات، ص10.

8–المرجع نفسه، ص10.

9–مصطفى مندور، اللّغة بين العقل والمغامرة، منشأة المعارف، الإسكندريّة، د–ت، ص7.

10–عبد السّلام المسدّي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات، ص10.

11–عبد السّلام المسدّي، العربيّة والإعراب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010م، ص22.

12–عبد السّلام المسدّي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات، ص10.

13-المرجع نفسه، ص15.

14-ينظر، أحمد مومن، اللّسانيّات النشأة والتطوّر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط4، 2008م، ص79.

15-ينظر، المرجع نفسه، ص80.

16-Georges Mounin, la linguistique du xxesieele, PUF, 1972, P200.

17-ينظر، أحمد مومن، اللّسانيّات النشأة والتطوّر، ص83.

18-المرجع نفسه، ص20/19.

19-محمّد عبد العزيز عبد الدايم، النظريّة اللّغوية في التراث العربيّ، دار السّلام للطباعة والنشر والتوزيعوالترجمةالقاهرة، مصر، ط1 2006م، ص76.

20-عبد السّلام المسدّي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات، ص25/24.

21-خليفة بوجادي، اللّسانيات النظريّة دروس وتطبيقات، ص9.

22-ينظر، حافيظ إسماعيل علوي، اللّسانيّات في الثقافة العربيّة الحديثة وإشكاليّة التلقّي، مجلّة اللّسانيات واللّغة العربيّة، العدد2،السنة 2007م.

23-عبد السّلام المسدّي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات، ص28.

24-المرجع نفسه، ص19.

25-عبد السّلام المسدّي، اللّسانيات وأسسها المعرفيّة، الدار التونسيّة للنشر، 1986م، ص31.

26-عبد السّلام المسدّي، قضية البنيويّة دراسة ونماذج، ص5.

27-المرجع نفسه، ص77.

27-ينظر، صلاح فضل، نظريّة البنائيّة في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998م، ص120.

29-ينظر، عبد السّلام المسدّي، قضية البنيويّة دراسة ونماذج، دار الجنوب، تونس، 1995م ص110/108.

30-ينظر، يمنى العيد، في معرفة النّص، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1985م، ص33.